الدراسات القائمة على المخطوطات و أثرها على علم تحقيق النصوص

الدكتور/ خلفان بن زهران بن حمد الحجي

قسم دراسات المعلومات جامعة السلطان قابوس

المستخلص

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الدراسات القائمة على المخطوطات و كتب التراث و أثر كل منها على تحقيق نصوصها العلمية. تم البحث عن المصادر المعنية بهذه العلوم من خلال المصادر المتاحة على الشبكة العالمية للمعلومات و كذلك المتاح منها في جامعة السلطان قابوس. وضعت المصادر التي تم الحصول عليها في ملف واحد لاستقرائها بشكل متتابع بطريقة منهج تحليل المحتوى. و قد أثبت البحث أن ما من علم يتعلق بالمخطوطات إلا و له أثر و علاقة بعلم تحقيق النصوص. فالكوديكولوجيا مثلا و هي علم صناعة المخطوط كما تصنف في اللغة العربية لها أهميتها في دراسة عدد من مكونات المخطوط التي تؤدي إلى تحديد زمنه أو الحضارة التي ينتمي إليها، و لهذه أهمية في التأكد من تاريخ المخطوط و تقييم النسخ المتوافرة تمهيدا لترتيبها وفق الأسس التي وضعها علماء التحقيق. و قد أوضحت الدراسة أن من أوائل العلوم التي اهتمت بالمخطوط هي التي ركزت على فهرسته و توثيقه و هذه الجهود كان لها أثرها الكبير في الكشف عن كثير من المخطوطات في مختلف خزائن الكتب العالمية مما ساعد المعنيين بالتحقيق على معرفة أماكنها و تتبعها. و قد أوضحنا في الدراسة أن عمل المفهرس ينعكس سلبا أو إيجابا على عملية التحقيق، حيث أن الوصف العلمي الدقيق للمخطوطة في بطاقة الفهرسة يمكن المحقق من التحقق من بياناتها و ربطها بما قد يتوفر لديه من معلومات عن المخطوط. أما علم الفيلولوجيا المعني بدراسة النصوص فيرى كثير من الباحثين ارتباطه الوثيق بالتحقيق الذي يركز اهتمامه على نص المخطوط أكثر من أي عنصر آخر فيه.

تمهيد

تعتبر الأمة العربية من أغنى الأمم بتراثها الفكري المخطوط. فما تملكه من رصيد هائل من المخطوطات في شتى فروع العلم و المعرفة يشكل رصيدا ضخما يصعب حصره أو التكهن بعدده، و ذلك لأن قرائح العلماء و المفكرين العرب والمسلمين لم تتوقف عن الإبداع أو تكف عند التأليف لأكثر من اربعة عشر قرنا من الزمان. الأمر الذي جعل المخطوطات العربية هي الأكثر عددا و الأطول عمرا و الأشمل محتوى و فكرا من مخطوطات سائر الأمم (1)

و لذلك فانه ليس من الغريب أن تحظى المخطوطات العربية باهتمام الباحثين و الدارسين في مختلف أقطار العالم، فقلما تجد مركزا علميا أو ثقافيا يختص بالعلوم الإجتماعية و الإنسانية إلا و تعتبر المخطوطات ضمن مصادره العلمية. كما أن المكتبات الكبرى بالعالم تعتبر حصولها على نسخ منها أمرا لازما لرفع رصيدها المعرفي و تعزيز موقعها العلمي، حتى بلغت أسعار نسخ بعض المخطوطات حدا يصعب الوفاء به إلا من بعض المكتبات التي تملك رصيدا ضخما من مصادر الدعم المالي لمثل هذا النوع من مصادر المعلومات.

و بتعدد مراكز الاهتمام بالمخطوطات من مكتبات و دور نشر و مراكز بحث مختلفة، تعددت اهتمامات الباحثين بها. فمنهم من اهتم بمضمونها الفكري و محتواها العلمي، و آخرون كانت اهتماماتهم بالجوانب المادية و الشكلية لها. و هذا ما انطلق منه الباحثون و المهتمون بعلم المخطوطات عند تقسيمهم لدراسات المخطوطات الى قسمين رئيسيين هما: الدراسات الفيلولوجية و الدراسات الكوديكولوجية. فمن الأولى خرجت الدراسات المعنية بالنصوص تأريخا و دراسة وتحقيقا لإبراز علومها للباحثين و طلبة العلم بالشكل الذي يحفظ كيانها المعرفي كما وضعه مؤلفوها، و هو ما فتح للبشرية كنوزا من المعرفة الممتدة جذورها بامتداد الحضارة الإسلامية و العربية و ربطها بحاضر البحث العلمي للأمة و مستقبله، ليستقر على أسس قوية ثابتة من مناهج البحث و طرق التأليف و سعة الأفق، إضافة إلى بناء النظريات العلمية وفق منهج علمي سليم وفق ثوابت الأمة و قيمها.

أما الدراسات الكوديكولوجية و ان كانت خارج اهتمام الباحثين في التراث الفكري العربي لفترة طويلة من الزمن، فإنها يمكن أن تكون مفتاحا لكثير الأبحاث المتعلقة بصناعة الكتابة في العالم العربي. فمن خلالها يمكن التطرق إلى دراسة مظاهر الإستقرار و الإزدهار الإقتصادي للأمة الذي تعكسه كثير من المقومات التي تقوم عليها صناعة الكتب، كالأوراق المستخدمة في الكتابة و الأحبار و الجلود. إضافة إلى الزخارف و التذهيب و غيرها، و كلها يمكن أن تعكس التقدم الذي وصلت إليه الأمة في بعض أوقاتها.

و إضافة إلى ما سبق فإن المخطوطات تعد من المصادر الأولية لدراسة التأريخ و الأنساب و الجغرافيا و اللغة و الأدب وغيرها من العلوم الإجتماعية و الإنسانية. و هي بذلك تعتبر أرقى مراتب المصادر العلمية كما يصنفها المختصون في البحث العلمي و دراسات المعلومات. حيث يقسمون المصادر العلمية إلى مصادر أولية و هي التي تحمل المعلومات الأساسية لأي علم، و مصادر من الدرجة الثانية و هي التي تنبثق من الأولية شرحا و دراسة، وهناك مصادر من الدرجة الثالثة و هي التي تنقل من الأولى و الثانية أو تشير إليها.

تهدف هذه الدراسة إلى التطرق إلى أنواع الدراسات المتعلقة بالمخطوط العربي و أثر كل منها على علم تحقيق النصوص. ولذلك فإن الباحث اتبع منهج البحث النوعي المعتمد على تحليل المحتوى للأبحاث و الدراسات التي أمكنه التوصل إليها في هذا المجال.

مجالات دراسة المخطوط

يشير الباحثون إلى عدد من الحقول العلمية التي اتخذت من المخطوط مادة لها. انصب اهتمام كل حقل منها على جانب من جوانب المخطوط المادية أو العلمية. منها ما اختص بإظهار الشكل والنص الأصل في المخطوطة كما وضعه المصنف أو المؤلف في زمانه. و منها ما ركز على النص المتضمن في المخطوطة. كما أن هناك حقول علمية ركزت اهتمامها لدراسة المخطوطة لذاتها, بصفتها وثيقة مادية ذات أهمية بحثية كبيرة, و هو ما يدخل ضمن الدراسات الأركيولوجية التي تدرس المادة المخطوطة نفسها كإرث تاريخي. أما فهرسة المخطوطات و وضع الكشافات اللازمة لها كان من أوائل الحقول العلمية للمهتمين بالمخطوطات (2).

و كانت بدايات البحث في حقول دراسات المخطوط المختلفة قد بدأت في الغرب، خاصة من خلال جهود عدد من المستشرقين الذين اهتموا بدراسة الإرث العربي المخطوط و تتبعه في مكتبات العالم المختلفة لتوثيقه و فهرسته. و يعتبر كتاب bibliography of bibliographies, أي "مكتبة المكتبات" أو "بيبليوغرافيا المكتبات" أو "فهرسة خزائن الكتب", الذي ظهرت طبعته الأولى في اللغة اللاتينية عام 1664 من أهم مصادر العلم المنصرف لدراسة المخطوطات وتوثيقها وإحيائها. ونشرت طبعته الثانية في العام 1672 من خلال جهود الباحث الموسوعي فيليب لابي Philip Lappe (3). و قد لقي هذا الكتاب بعد ذلك اهتماما من عدد من المهتمين بدراسة كتب التراث أمثال براولوBrownlow, وجيرمي بيمبيرتو Jeremy Pemberto, و فيرنون Vernon . ثم توالت بعد ذلك دراسات لعدد من الباحثين الذين ركزوا على بعض جوانب الحقول العلمية للمخطوطات و منها الجانب

الكوديكولوجي. و من هؤلاء فون كونسفلد Von Koninksfild وفيتكام (Withkam) وفيكرز (Wiguers) وديروش (Déroche) (4).

أما الدراسات ذات العلاقة بالمخطوط العربي فيرجعها الباحثون إلى نهاية القرن التاسع عشر و بدايات القرن العشرين حينما اهتم عدد من المستشرقين و العرب في ما بعد بتتبع و رصد بعض الجوانب العلمية للمخطوط العربي. و كانت بواكير تلك الحركة منصبة حول الاهتمام ببعض جوانب المخطوط كالفهارس. و من ذلك المحاولة التي قام بها المستشرق الألماني كارل بروكلمان عام1898 م في الجزء الأول من كتابه الكبير "تاريخ الأدب العربي". و قد أعقب ذلك عدد من الأعمال المتعلقة بهذا الموضوع مثل "دليل الفهارس وقوائم المخطوطات العربية" الذي أعده المستشرق الفرنسي فاجدا عام 1949 م؛ وكتاب "المخطوطات العربية في العالم" لمؤلفه ويسمان (Huisman) ؛ و "تاريخ التراث العربي" لفؤاد سزكين. وقد تتابعت المحاولات إلى الثمانينيّات من القرن الماضي حين وضع العالم العراقي كوركيس عواد كتابه "فهارس المخطوطات العربية في العالم" (5).

أما الجانب المادي للمخطوط متمثلا في صنعته و خطوط كتابته و تاريخ نشأته و تطوره فقد وجد عناية من عدد من الدراسات الأخرى بدءا من العام 1905 م حين وضع العالم موريتز Moritz كتابه "الخطاطة العربية" (Arabic Paleography)، مرورا بعدد من المصادر الأخرى مثل "الكتاب العربي" (The Arabic Book) للعالم الدنماركي جوهانيس بدرسون (Johannes Pederson)، و "الكتاب الإسلامي" (The Islamic Book) لمؤلفيه توماس أرنولد (T. Arnold) وأدولف كرومان (A. Grohmann)، و"الكتاب العربي المخطوط إلى القرن العاشر الهجري" لصلاح الدين المنجد. و كذلك كتاب "المخطوط العربي" الذي كان عبارة عن أطروحة دكتوراة تقدم بها الدكتور عبد الستار الحلوجي لجامعة القاهرة عام1969 م.

و سنحاول في الصفحات القادمة التعرض لكل حقل من حقول دراسة المخطوط و إظهار أثره على علم تحقيق النصوص.

الدراسات الكوديكولوجية

الكوديكولوجيا لفظ مركب من مقطعين:Codex و هي كلمة لاتينية تعني كتاب و (Logos) و هي يونانية تعني علم و بحث. وهو علم نشأ في الغرب الأوروبي لدراسة الشكل المادي للمخطوطات اليونانية واللاتينية. و هذا العلم يهتم بدراسة كل أثر للمخطوط لا يرتبط بالنص الأساسي للكتاب بل يتعداه إلى دراسة العناصر المادية للمخطوط متمثلة في الورق، الحبر و المداد، التذهيب، التجليد، الترقيم و التعقيبات. إضافة إلى ما دون على صفحة الغلاف من سماعات و قراءات و إجازات و

مناولات و مقابلات و بلاغات و معارضات و مطالعات و تمليكات و تقييدات و وقفيات و ما يسجل في آخر الكتاب فيما يعرض بالكولوفون أو حرد المتن من اسم الناسخ و تاريخ النسخ و مكانه و النسخة المنقول عنها و المصدر الذي جاءت منه النسخة و الجهة التي آل إليها، و ما على النسخة من أختام و ما شابه ذلك(6).

و لعلم الكوديكولوجيا أهمية كبيرة في دراسة المخطوط، فمن خلاله يمكن التوصل إلى عناصر صناعة الكتاب العربي عبر العصور، و عليه تبنى وسائل الحفاظ عليه و حمايته و ترميمه. و بالإضافة إلى ذلك فإن المقاييس التي تحدد قيمة المخطوط توزع عادة على ثلاثة أسس هامة هي:

الموضوع و يقدر ب 40% من قيمة المخطوط، و الشكل المادي و الفني و يأخذ30%، بينما النسبة المتبقية و هي30% تترك لعمر المخطوط و مدى اقترابه من عصر المؤلف. و إذا علمنا أن العنصرين الثاني و الثالث يدخلان ضمن اهتمامات علم الكوديكولوجيا و نسبتهما مع60% فإننا ندرك أنه لا يمكن لمن يتولى عملية تقييم أي مخطوط أن يعتمد فقط على موضوعه، بل عليه أيضا أن ينظر إلى مكوناته المادية و ملامحه الفنية نظرة خاصة و يوليهما أهمية بالغة (7). و العامل الأهم في هذا الجانب أيضا هو المساعدة على كشف التزوير إذا علمنا أن المزورين ينصب جهدهم على ملامح المخطوط المادية و الفنية كالحبر و تعتيق الورق و تقليد الخط و العبث في بداية المخطوط و نهايته لتغيير عنوانه أو اسم مؤلفه أو تغيير تاريخه أو غير ذلك من الأساليب التي قد تغير هوية الكتاب و عمره و مكوناته (8). و من هنا فإن القدرة على كشف ألاعيب المزورين يتطلب خبرة و مهارة في معرفة الأحبار و الخطوط و تاريخها و الجلود و مكوناتها و الصور و الرسوم و مدلولاتها، إضافة إلى تطور صناعة الورق و طريقة كتابة المخطوط.

و على الرغم من أن هذا العلم غربي النشأة، فقد وجد اهتماما كبيرا من المهتمين بالمخطوط العربي العرب منهم و المستشرقين. حتى أشار بعضهم إلى مصطلح الكوديكولوجيا العربية التي عرفها أحمد شوقي بنبين بأنها " علم يبحث في خوارج النص كالحواشي و الشروح و التصحيحات و التعليقات و اللحق و التملكات و الوقفيات و الإجازات ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط من توريق و ترقيم و تجليد و تجارة و ما يلي ذلك من تكشيف و فهرسة"(9). و من ثم فهي علم حديث يتناول المخطوط من حيث صناعته و تركيبه و و تاريخه و مصدره و تملكه و يطلقون عليه في بعض التعريفات الغربية معمارية الكتب The archaeology of the Book

الكوديكولوجيا و علم التحقيق

و للتعرف على أثر علم الكوديكوكلوجيا على التحقيق، فإننا سنعرض على عدد من المبادئ التي نص عليها علماء التحقيق و التي نرى أنه يمكن من الإفادة من علم الكوديكولوجيا في تحديدها. و من ذلك عملية جمع نسخ المخطوط و ترتيبها.

فمن المبادئ الأساسية للترتيب هو التاريخ لمعرفة مدى قرب النسخة المخطوطة من عصر المؤلف. و على الرغم من أن أغلب المخطوطات تحوي تاريخا للنسخ بين ثناياها، إلا أن الكثير منها أيضا أفقده الزمن بعض جوانبه التي يمكن أن تكون موضعا لبيانات النسخ و منها التاريخ. و هنا يمكن لعلم الكوديكولوجيا أن يقدم لنا خدمة لتحديد عمر المخطوط من خلال عدد من الأمور التي يهتم بها كنوع الورق أو الحبر أو الخط أو الزخرفة و ذلك بتحليلها و معرفة الزمن الذي سادت فيه أو المصانع التي كانت معنية بإنتاج الورق المستخدم و مكانها و زمانها. كما أنه من خلال تحديد نوع الخط يمكن التوصل إلى الحضارة التي ينتمي إليها المخطوط. فمن المعروف أن لكل عصر نوع من الخط يتميز به، و لكل منطقة جغرافية أيضا نوع من الخط تميزت به (10). و مثال ذلك أنه في العصر العباسي بلغ الخط الكوفي منزلة رفيعة، وحظي بعناية فائقة من النساخ (11). كما أن الخط الديواني كانت له صلة بدواوين السلاطين في العصر العثماني، وكان أول من وضع قواعده إبراهيم منيف التركي في عهد السلطان العثماني محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية . ثم قام بتطويره الكثير من الخطاطين أشهرهم الخطاط مصطفى غزلان (12). كما كان للخط المغربي الأندلسي سطوته خلال قيام الحضارة العربية في الأندلس و بلدان المغرب العربي.

الفهرسة و الوصف الببليوجرافي

لا شك أن التراث العربي المخطوط ينتشر في كل ربوع الكرة الأرضية، فما يحويه من علوم الحضارة الإسلامية و الحضارات الأخرى القديمة جعل المسئولين في مراكز الثقافة و الحضارة و المكتبات الكبرى في العالم يتسابقون لامتلاك بعض كنوزه حتى أصبحت تزخر به معظم المكتبات و مراكز البحث العلمي في العالم أجمع.

و مع ذلك فإن هناك قصورا ملحوظا في التعريف بهذا التراث المخطوط و تيسير سبل الإفادة منه للباحثين و الدارسين، خاصة في مكتبات العالم العربي، مصدره و منبعه، مما جعل من يتصدى له بالدراسة و التحقيق أمام صعوبات لا قبل له بها. و يعتبر قيام المكتبات و دور الكتب بفهرسة ما تملكه من مخطوطات و نشر فهارسها و إتاحتها للباحثين في كل مكان أمرا ضروريا و لازما لخدمة حضارتنا العربية الإسلامية، و جعل عصارتها الفكرية أمام العلماء و الباحثين ينكبون عليها بحثا و تحقيقا و نشرا.

و على الرغم من وجود قواعد عالمية للفهرسة كقواعد الفهرسة الأنجلو – أمريكية يسير عليها المفهرسون في فهرسة مصادر المعلومات المختلفة، إلا أن هذه القواعد غير صالحة للتطبيق على المخطوطات العربية، نظرا لما طرأ عليها خلال سنوات عمرها التي تمتد إلى أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، من تغيير في أساليب كتابتها و طرق ترتيبها و تبويبها، و تعدد أنواع خطوطها، إضافة إلى ما لحق بها من جراء عوامل الزمن من تلف في بعض أجزائها، أو فقد لبعض صفحاتها مما يجعل كل مخطوط منها بحاجة إلى أن يعامل معاملة خاصة به لا يصلح أن يعامل بها غيره. و لقد قام بعض الأساتذة و المتخصصين بوضع عدد من النماذج لبطاقات الفهرسة للمخطوطات العربية يستعين بها المفهرسون في المكتبات عند قيامهم بفهرسة ما تملكه مكتباتهم من مخطوطات، إلا أن تلك النماذج مع تعددها تعكس الرؤية الشخصية لواضعيها، حيث اختلف كل نموذج منها عن الآخر في عرضه للبيانات المطلوب إثباتها في بطاقة الفهرسة. فما يراه أحدهم ضروريا لا بد منه قد يراه الآخر مجرد حشو لا داعي له. و ما يراه هذا ممكنا يعتبره الآخر مستحيلا، و ذلك على الرغم من اتفاقهم جميعا على بعض البيانات الأساسية للمخطوط (13)

و قد تعقب عابد سليمان المشوخي جميع المحاولات و النماذج و تناول بالعرض و التحليل تجارب عدد من المكتبات و دور الكتب العربية و الأجنبية في فهرسة المخطوط العربي حتى خلص إلى اقتراح مستويين لفهرسة المخطوط العربي: مستوى مختصر يفهرس فيه المخطوط فهرسة مشابهة لفهرسة المطبوع مع تغيير بعض البيانات كوضع بيانات النسخ بدلا من بيانات النشر و غيرها، و هذا المستوى جعله صالحا لعامة الجهات التي لديها مخطوطات تريد فهرستها؛ أما المستوى الآخر فهو مفصل يناسب مراكز البحث العلمي و المكتبات الخاصة بالمخطوطات و قد ضمنه عددا من البيانات التفصيلية عن المخطوط (14).

و لقد أدى عدم الإتفاق على أسس موحدة لفهرسة المخطوطات العربية إلى اختلاف مناهج الفهرسة المتبعة في دور المخطوطات و المكتبات المعنية بها.

و على كل حال فإن قضية فهرسة المخطوطات ليست وليدة اليوم كما أنها ليست قضية المخطو طات العربية وحدها. فجذورها تمتد إلى المحاولات الأولى لفهرسة المخطوطات القديمة بدءا بما بقي من شذرات فهرس الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus) لمخطوطات مكتبة الإسكندرية مرورا بما وضعه أصحاب الإختصاص في الغرب من فهارس لمخطوطاتهم إلى الفهارس الحديثة التي وضعت للتراث العربي المخطوط، كلها تخلو من أسس موحدة للفهرسة مما

جعلها تختلف اختلافا واضحا في ما بينها في أساليب و صف المخطوطات و البيانات التي يحويها كل فهرس منها عنها(15).

و قد يعزى ذلك الإختلاف إلى عدم تحديد الاتفاق على البيانات الأساسية التي تمثل الضبط الببليوجرافي للمخطوط، والطريقة التي يعالج بها المفهرس ما يراه ضروريا منها، إضافة إلى ضعف خبرة المفهرسين في التعامل مع كتب التراث وبالتالي معاملتها معاملة الكتب المطبوعة في الفهرسة و التصنيف.

الفهرسة و الكوديكولوجيا و التحقيق

بينا في السابق أثر علم الكوديكولوجيا على التحقيق، من خلال عرضنا لبعض الجوانب التي يهتم بها هذا العلم و التي يعتبرها علماء التحقيق ضرورية في بعض مراحل التحقيق كمرحلة جمع النسخ و مقارنتها. و قد وجدنا من خلال البحث في هذا المجال من يربط علم الكوديكولوجيا في بعض جوانبه بإنتاج فهارس المخطوطات. فيرى أحمد شوقي بنبين مثلا أن تحديد البيانات الببليوجرافية للمخطوط لا يمكن تحديدها تحديدا دقيقا إلا بمحاولة تحديد الفهرسة تحديدا كوديكولوجيا، أي من خلال إبراز الحدود التي تفصل بين خصائص الفهرسة ومهام علم المخطوطات . إلا أن الواقع يظهر أن هناك اختلافا بين العلماء في تحديد موقع الفهرسة بالنسبة لعلم الكوديكولوجيا. فمنهم من صنفها ضمن عناصر هذا العلم، ومنهم من اعتبرها فنا قائما بذاته يتداخل ويتكامل معها مثل ما يتكامل و يتداخل مع غيره.

والحقيقة أن كثيرا من العناصر اللازمة لتوصيف المخطوط قد تدخل ضمن اهتمامات كل من الكوديكولوجي والمفهرس على حد سواء. فكلاهما يعمل على التعريف بالمخطوط أو دراسته من الناحية المادية بشكل أساسي, و إن تطرق المفهرس لموضوع المخطوط بلفتة بسيطة هدفها تحديد المجال الموضوعي الذي يعالجه. و من الأمور الهامة التي يشترك فيها الكوديكولوجي و المفهرس هي ما يتطرق له بعض المفهرسين أحيانا من تحديد مصدر المخطوط، أي المكان الذي جلب منه. و هذه، في نظر المختصين، مهمة تقع على عاتق الكوديكولوجي أكثر من المفهرس، فهو صاحب الإختصاص الذي يبحث عن مصادر المخطوط ورحلاته بين الخزائن والمكتبات عبر العصور، وذلك ليدرس مجالات أخرى كتاريخ الخزانات وتاريخ المخطوطات (16).

كما أن هناك عدد من المجالات الأخرى التي يمكن أن يفيد منها المفهرس من علم الكوديكولوجيا. و من ذلك التاريخ مثلا، فبدلا من تحديد تاريخ المخطوط غير المؤرخ أو المشكوك في تاريخه عن طريق التخمين بواسطة المفهرس، يمكن اللجوء

إلى عالم المخطوطات المهتم بالنواحي الكوديكولوجية الذي يمكنه القيام بتحديد تاريخ المخطوط مستندا على مجموعة من الأدوات التقنية والعلمية التي تستند على بعض النظريات الفيزيائية و الكيميائية التي يمكن من خلالها تحليل بعض مكونات المخطوط كالحبر و الورق و الجلود و غيرها.

و بذلك يتضح لنا أن علم الكوديكولوجيا اذا ما أحسن استخدامه من قبل المهتمين بفهرسة المخطوط، يمكن أن يؤدي إلى مزيد من الدقة في البيانات التي تتضمنها الفهارس الأمر سوف ينعكس إيجابا على جهود المهتمين بعلم التحقيق. ويمكننا أن نلخص أثر الفهرسة على التحقيق في عدة أمور، منها:

أن الفهرسة تهتم بالوصف الببليوجرافي للمخطوط مما يساعد المحقق – إذا ما أحسنت هذه العملية من قبل المفهرس – في التعرف على ملامح النسخ المتوافرة بالمكتبات المختلفة من خلال فهارسها. كما أن التحقق من اسم المؤلف و التأكد من صحة نسبة الكتاب إليه هي عملية مشتركة يقوم بها كل من المفهرس و المحقق، و لذلك فإذا ما اتبع المفهرس الطرق الصحيحة في ذلك من خلال رجوعه لمصادر التحقيق المعتمدة، فإن نتيجة عمله سيلمسها و يستفيد منها المحقق عند تتبعه للنسخ.

و من الأمور التي يهتم بها المفهرس بيانات نسخ المخطوط كاسم الناسخ و مكان النسخ و تاريخه و كلها عمليات هامة للتعرف على النسخة المخطوطة و تحديد تاريخها، فكل ذلك قد يعكس ارتباط الناسخ بالمؤلف، أو التعرف على مدى اقتراب مكان و زمان نسخه من بيئته و زمنه، و هو ما يساعد المحقق في عملية جمع النسخ من ناحية، و ترتيبها وفق الأطر العلمية للتحقيق لتحديد النسخة التي سوف يعتمدها أساسا لمقارنة النسخ الأخرى في ما بعد.

و من الأمور التي ذكرناها سابقا عند الحديث عن ارتباط الفهرسة بالكوديكولوجيا الارتباط الوثيق في تتبع مصدر المخطوط. و هذه العملية تعتبر من العمليات بالغة الأهمية للمحقق أيضا خاصة في هذا الزمن الذي شاع انتقال نسخ المخطوطات فيه على أشكال مختلفة من وسائل تخزين و نقل المعرفة، كالنسخ الورقي و المصغر على الميكروفيلم والميكروفيش، إضافة إلى أشكال النقل و التخزين الرقمي. الأمر الذي جعل النسخ المتعددة للمخطوط الواحد منتشرة في عدد كبير من المكتبات. و حقيقة الأمر أن هذه القضية تشكل عبئا كبيرا على المفهرس و المحقق على حد سواء، بل وتجعل المفهرس أمام تحد كبير بين الاهتمام بالجانب الوصفي للمخطوط فقط كما يراه في النسخة التي أمامه أو التداخل مع وظيفة يعتبرها الكثير من مهام عالم المخطوطات أو الكوديكولوجي لتتبع سير نسخ المخطوط من مصدرها حتى

وصلت إليه. و هي عملية شاقة بلا شك، هذا إن أمكنه القيام بها. و لهذه العملية أيضا أثرها البالغ على مهمة المحقق في مرحلة جمع النسخ. فقد يقصد عددا من المكتبات و دور الكتب ليبحث فيها على نسخ للمخطوط الذي يتصدى لتحقيقه ليحصل منها على نسخ ميكروفيلمية أو رقمية ما يلبث أن يدرك في ما بعد أن ما حصل عليه سوى متكررة لأصل واحد.

وإذا كانت هذه المسألة لها جذورها في الماضي منذ أن بدأت عمليات النسخ على الورق و الميكروفيلم، فإنها في الوقت الحاضر أكثر حضورا و تأثيرا مع انتشار عمليات النسخ الرقمي. فمن خلال اطلاعي شخصيا على تجارب الكثير من المكتبات و الأفراد المهتمين بتصوير المخطوطات و الوثائق في سلطنة عمان، لاحظت أن هناك مجموعات منها قد تم تصويرها أكثر من مرة من جهات مختلفة، و بعض المكتبات أيضا تقوم بنسخها من مكتبات أخرى في عمليات تبادل وإهداء، و مع ذلك فإن معظم هذه المجموعات ما زالت حبيسة المواد التي حفظت عليها و لم تصل إليها أيدي المفهرسين. و هذا في حد ذاته يعتبر عائقا أمام المهتمين بعمليات التحقيق في التعرف عن ما هو موجود منها أصلا ومكان وجوده، كما سيشكل صعوبة بالغة لمن سوف يكلفون بفهرستها لمعرفة مصادرها.

دراسة النص اللغوي في المخطوطات, أو "الفيلولوجيا"

يشار إلى مصطلح الفيلولوجيا في المعاجم على أنه المقابل لمصطلح فقه اللغة المستخدم في اللغة العربية. و يقصد بعلم فقه اللغة هو ذلك العلم الذي يضطلع بدراسة المحتوى الفكري للنص المكتوب من ناحية اللغة و تركيب المصطلحات، وقد عرفه تحسين فاضل عباس بأنه: "منهج للبحث استقرائي وصفي يعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة او البعيدة ، الشقيقة او الأجنبية وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتراكيبها وعناصر لهجاتها وتطور دلالتها ومدى نمائها قراءة وكتابة " (17). و هو مصطلح عربي قديم صنف فيه عدد من علماء اللغة العربية و الأدب على مر العصور، بدءا بكتاب الاشتياق في العربية للأصمعي،عبد الملك بن قريب المتوفي سنة 215 هـ ، ثم كتاب الخصائص الذي ألفه ابن جني في القرن الرابع، و كتاب (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لابن فارس في القرن الرابع أيضا. و غيرها من المؤلفات التي تناولت هذا الجانب لعلماء معروفين كالثعالبي المتوفي 429 هـ صاحب كتاب فقه اللغة، و ابن سيدة الأندلسي المتوفي 458 هـ الذي تناول نشأة اللغة العربية و الترادف و التضاد و الاشتراك فيها في كتابه المخصص، و من ثم جلال الدين السيوطي المتوفي سنة 911 هـ و الذي تناول بالتفصيل العديد من قضايا اللغة في كتابه (المزهر في علوم اللغة وأنواعها).

أما ما اصطلح عليه بعلم الفيلولوجيا عند الغرب فيرجع أصله إلى لفظين إغريقيين : هما philos بمعنى الصديق، وlogosبمعنى الكلام ، أي أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه .و هذا المصطلح و إن كان يستخدم مرادفا لعلم فقه اللغة أو ترجمة له في بعض معاجم اللغة كما ذكرنا، فإن استخدامه في عصر النهضة الأوروبية تجلى من خلال دراسة النصوص اللغوية, في الثقافة اليونانية القديمة واللاتينية, وقد استخدم بذلك حصراً في حقل اللغات القديمة, ودراسة ثقافاتها, قبل أن ينصرف الى الدراسات اللغوية المقارنة, كما في الدراسات السامية (18).

الفيلولوجيا و التحقيق

و في عالم المخطوطات فإن الفيلولجيا تختص بالدراسة العلمية للنصوص التراثية, المتضمنة في المخطوطات الموروثة, بما في ذلك نقد نصوص المخطوطات, وبذلك فهو يتماهى وفن التحقيق في التراث العربي الإسلامي, الذي يهدف إلى الوصل إلى النص الأصل الذي وضعه مؤلف المخطوط. أي إعادة النص الذي يرد في مختلف نسخ المخطوط الواحد إلى الشكل الذي وضعه عليه مؤلفه أو إلى أقرب صورة لذلك. بل أن اللفظ نفسه أطلق على تحقيق الوثائق والمخطوطات القديمة, بغية نشرها والانتفاع بها في النشاط العلمي، من تحقيق المخطوطات وطبعها، على نحو ما يقوم به, طلاب الدراسات العليا بالجامعات, من نشر التراث برسائلهم العلمية, وما ينشط به الباحثون, في مراكز إحياء التراث العلمي البحثية، ومن الشائع في تداول الوثائق, في البحوث والدراسات المعاصرة, أن يطلق على هذه الدراسات مدلول "الفيلولوجيا"، مما يبرز الزعم, أن هذا اللفظ لم يفقد يوماً دلالته, على الدراسات المتعلقة بفكرة القدم (19).

و قد استطرد محمود حجازي كثيرا و هو يوضح العلاقة بين علم الفيلولوجيا بمفهومه الغربي و علم اللغة، حيث يرى أنه جرى الخلط بين مجالي العلمين، و ذلك لارتباط البحث اللغوي بالنصوص القديمة حتى القرن التاسع عشر، و هو نفس المجال الذي يهتم به علم الفيلولوجيا. ، إلا أن القرن العشرين شهد تنوعا في البحث العلمي اللغوي و فرض هذا المجال نفسه كتخصص علمي للباحثين و الدارسين ممن يسعون إلى التعمق في علم اللغة و التعرف على العلاقات التي تربط اللغات ببعضها من حيث البناء و الاشتقاق، وذلك كالعلاقة التي تربط كل لغة من اللغات السامية باللغة السامية الأم التي افترض العلماء وجودها قبل اللغات السامية المعروفة. و هو بذلك أصبح علما مستقلا عن الفيلولوجيا التي تهتم بنشر النصوص والنقوش القديمة.

و على الرغم من محاولة التفريق بين العلمين إلا أنه عاد ليؤكد أن علم الفيلولوجيا هو الأساس لعلم اللغة و لغيره من العلوم التي تقوم على تقديم النصوص، و ذلك لأن المجال الدقيق لعلم النصوص هو ما يطلق عليه في اللغات الأوروبية

اسم Philology، قد تحدد بتحقيق المخطوطات وإعدادها للنشر العلمي وفك رموز الكتابات القديمة وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بأبحاث متخصصة فيها (20). و هذا يتفق مع ما ذهب إليه هيثم الحلي الحسيني عند تعريفه للفيلولوجيا بأنها الحقل المختص بالدراسة العلمية للنصوص التراثية, المتضمنة في المخطوطات الموروثة, ويتضمن ذلك الممارسة العلمية النقدية لنصوص المخطوطات, وبذلك فهو يتماهى وفن التحقيق في التراث العربي الإسلامي, الذي يهتم بالكشف عن النص الأصل, وارجاع المواد فيه الى مصادرها الأولى" (21).

الخاتمة

يدرك القائمون على علم تحقيق النصوص في عالما العربي أن الموروث الفكري المخطوط للأمة مازال بحاجة إلى بذل كثير من الجهود لإخراجه محققا إلى الباحثين و طلبة العلم. و على الرغم من تعدد مجالات البحث العلمي و تنوع مصادره في الوقت الحاضر، إلا أن المصادر العلمية المخطوطة ما زالت تحتفظ ببريقها لدى المهتمين بدراسات العلوم الإنسانية و الإجتماعية، حتى أنهم يعدونها من المصادر الأساسية لأبحاثهم و دراساتهم. و مما يدل على ذلك تعدد الندوات و اللقاءات العلمية حول هذا الموضوع في كثير من الجامعات و مراكز البحث العلمي المهتمة بهذه الموضوعات. لقد أظهر تتبعنا للمصادر العلمية لهذه الدراسة أن علم تحقيق النصوص ليس علما منبتا أو مستقلا عن العلوم الأخرى التي تعنى بدراسة المخطوط كالكوديكولوجيا و الفيلولوجيا و العلوم المرتبطة بالفهرسة و الببليوجرافيا و غيرها. فما من مجال لهذه العلوم إلا و له تأثير واضح في علم التحقيق بطريق مباشر كارتباط ما يعرف بعلم فقه اللغة أو الفيلولوجيا بنصوص المخطوطات التى هي المادة الأساسية لعلم التحقيق. و هناك تأثير غير مباشر يتمثل في الجوانب التي تعتبرها بعض العلوم كالكويكولوجيا موضوعا لها، وهي في الوقت نفسه من العناصر الهامة للمحقق في بعض مراحل التحقيق كمرحلة جمع النسخ و ترتيبها. كما أن الفهارس التي تنتجها المكتبات لمجموعاتها من المخطوطات هي المفتاح الأساسي للمحقق لتتبع نسخ المخطوط الذي يتصدى لتحقيقه في المكتبات و خزائن المخطوطات. و نظرا لأهمية هذا الموضوع فإن مزيدا من الدراسات قد تكون ضرورية لاستجلاء المشاكل التي يواجهها الباحثون في علوم مخطوطات و السعي إلى إيجاد الحلول المناسبة لها.

المصادر

1. خلفان بن زهران الحجي . المخطوطات العربية في المكتبات العمانية: دراسة لتكوينها و تنظيمها و سبل الإفادة منها. رسالة ماجستير، جامعة الآداب بجامعة القاهرة، 1997 م
2. هيثم الحلي الحسيني. المناهج والمنهجية – الأدوات العلمية البحثية في دراسة المخطوطات وإحياء التراث العلمي: دراسة أكاديمية تحليلية ومنهجية.
http://www.alshirazi.com/world/article/2011/796.htm (2014/4/15)
3. نفس المصدر
4. أحمد شوقي بنبين. نحو تأسيس علم مخطوطات عربي: التجربة الغربية. http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad25partie3.htm (2014/4/15)
5. نفس المصدر
6. أيمن فؤاد سيد. الكتاب العربي المخطوط و علم المخطوطات. القاهرة: االدار المصرية اللبنانية، 1997
7. خلفان بن زهران الحجي. الطرق المستخدمة في كتابة المخطوط العربي و زخرفته و تجليده. ندوة المخطوطات العمانية كيف وصلت إلينا. مسقط: المنتدى الأدبي، 12 يونيو 2006.
8. عابد سليمان المشوخي. التزوير و الانتحال في المخطوطات العربية. الرياض: أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، 2001
9. تركي العطية. الخط العربي الإسلامي.. ط1 .. بيروت: دار التراث الإسلامي، 1395هـ.
10. ميلود فضة. بين الكوديكولوجيا والتحقيق . مجلة رفوف، ع2، ديسمبر 2013 ص 30-43
11. محمود الجبوري. الخط العربي قيم ومفاهيم والزخرفة الإسلامية.. إربد: الناشر دار الأمل للنشر والتوزيع، 1998
12. مصطفى سعد. المجموعة النادرة في الخط العربي والزخرفة.. طنطا: مدرسة الخطوط العربية، 1989م
13. صلاح الدين المنجد. قواعد فهرسة المخطوطات العربية.- ط2 .- بيروت: دار الكتاب الجديد، 1976م
14. عابد سليمان المشوخي. فهرسة المخطوطات العربية .. الزرقاء: مكتبة المنار، 1989/
15. أحمد شوقي بربين. الفهرسة و علم المخطوطات. مجلة التاريخ العربي، ع8، 1988
16. أحمد شوقي بنبين. نحو تأسيس علم مخطوطات عربي: التجربة الغربية. http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad25partie3.htm (2014/4/15)
17. تحسين فاضل عباس. فقه اللغة (محاضرة). منشورة على موقعه الرسمي
http://www.arts.uokufa.edu.iq/teaching/a/tahseen/page3.html (2014/4/15)
18. هيثم الحلي الحسيني. المناهج والمنهجية – الأدوات العلمية البحثية في دراسة المخطوطات وإحياء التراث العلمي: دراسة أكاديمية تحليلية ومنهجية.
http://www.alshirazi.com/world/article/2011/796.htm (2014/4/15)
19. تمام حسان, دراسة إبيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي, دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1, 1981.
20. محمود فهمي حجازي. علم اللغة العربية. القاهرة: دار غريب للنشر و التوزيع (د.ت)
21. هيثم الحلي الحسيني. المناهج والمنهجية – الأدوات العلمية البحثية في دراسة المخطوطات وإحياء التراث العلمي: دراسة أكاديمية تحليلية ومنهجية.
http://www.alshirazi.com/world/article/2011/796.htm (2014/4/15)